دراسة أدبية

التجاريَّ المحروقَ من جهةِ وادي أبو جميل وباب إدريس.» فإذا «الشوارعُ متاهةٌ غامضةٌ محروقةٌ من الأسلاك والأخشاب والحديد المحطَّم والبراميل وتلال التراب التي يَنْبت عليها العشبُ» (ج ٢، ص ٢٣).

متاهةٌ غامضةٌ هي بيروت، تعيد الراوي/الكاتب إلى التاريخ ليكتشف أنّ وسطها الذي دمَّرتْه الحربُ هو بيروتُ التي ارتفعتْ بين عاميْ ١٩٢٥ و١٩٢٩، زمنَ الانتداب الفرنسي، على ركام بيروت العثمانية التي دمَّرتْها حروبٌ سابقة وكان لها عالمُها وأناسُها وحكاياتها.

من هذا التاريخ تتكوّن ذاكرةُ هذا الراوي.

الذاكرة حياةٌ في أكثر من زمن. كأنّها منامٌ تُستعاد به الحياةُ:

يموت شاهين في زمنٍ، ولا يموت في زمنٍ آخر هو زمنُ تذكُّره! فمن يتذكّره يكونه ولا يكونه. يُشْبهه

يقول عمر (أخو شاهين الأصغر) إنّ كارا سلمان يُشْبه أخاه شاهين وعندما يقول عمر إنّ شاهين مات، يَسْمع كارا سلمان يقول له: «عمر، أنا شاهين» (ج ٢، ص ٤١٣).

يعود شاهين في كارا سلمان، يعود في ما يسمعه عمر وما هو صوتُ كارا سلمان. يعود في الشَّبَه والذاكرة وتعود بيروتُ القديمة، في ذاكرة الكتابة، إلى الحياة. يصغي الراوي الذي يكتب إلى صوت الكونت سليمان ده بسترس يحسّ أنَّه خارج العالم كأنَّه غادر «عصورَنا السريعةَ الصاخبة ومضيْتُ مستدلاً بصوته إلى تلك الأزمنة البائدة، إلى مدن قديمة زالت ولن تعود» (ج ١، ص ١١).

يمضي الراوي/الكاتب إلى تلك الأزمنة مسكونًا بسؤاله عن ذلك العالم، عن الزمن والوجود، عن الذاكرة ومقدرتها على التخيُّل، عن حقيقة ما يُستعاد.

«كل ذلك العالم، هل نَقْدر أن نتخيَّله؟ أم أنَّ أصواتَ ذلك الكون المتلاشي ضاعت في السديم (في الفراغ الكبير اللامتناهي) ضاعت إلى الأبد؟» (ج ١، ص ٧١)

يمضي الراوي الذي يكتب مُصْغيًا إلى الكونت الذي يروي، إلى آخرين رَوَوْا وكتبوا، ليقدِّم لنا عملاً ملحميّاً لحياةِ مدينةٍ وعالمها؛ عملاً لم يسبقْه إليه أحدٌ ولم يجارِهِ فيه سوى ندرةٍ من الروائيين خَلَّدهم الزمنُ

مع ربيع جابر تعيش بيروتُ ذاكرتَها، ونعيشها متعةً في جمالية الإبداع، وحقيقةً في متخيَّل التاريخ، وإصغاءً إلى أصوات الكون وإيقاعِ الحياة في الزمنِ الممكن والزمانيّةِ الملتبسة.

بيروت

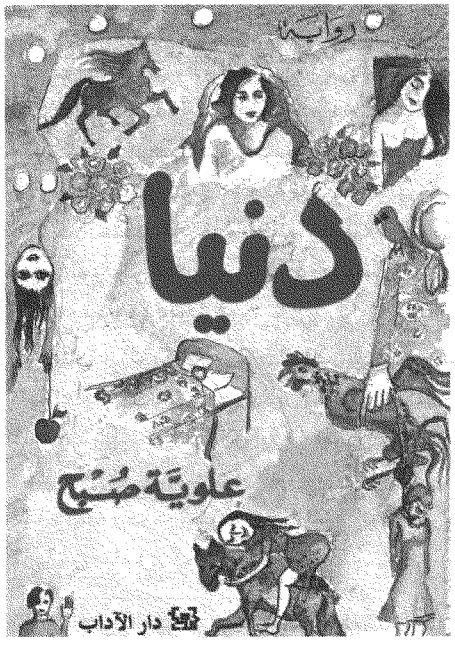

كأنّ حكاية الدُّنيا هي حكاية الخوف والأوهام. هكذا فكّرتُ، بعدما وضعتُ الأوراق جانبًا ورحتُ أمتلئ بأوهام أبطال الحكاية التي قرأتُها، وأتذكّرهم واحداً واحداً: جدَّتي سعدية وعمّي عبدالله وفريال وسهى وماغي وروز ورؤوف ودلال والدكتور شوقي وحسنه وكل، كل أبطال الحكاية. وحامت في ذاكرتي صورةُ أبي المسجّى، وفوقَه تحلّق أطيافُ حكاياته. أطياف لا أعرف الآن إنْ كانت تشبه تلك التي راودت الكاتبة في وهم الكتابة.

الدُّنيا منام...